

# القاعدة الثانية: اتخاذ الواسطة بين الخالق والمخلوق سبب للشرك

القاعدة الثانية: أنهم يقولون: ما دعوناهم وتوجّهنا إليهم إلا لطلب القرية والشفاعة، فدليل القرية قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آتَحْدُوا مِنْ دُونِهِ أُولَئِكَ مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقْرَبُوْنَا إِلَى اللَّهِ رُلْقَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَحْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} . ودليل الشفاعة قوله تعالى: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَصْرُّهُمْ وَلَا يَنْعَهُمْ وَيَقُولُونَ هُؤُلَاءُ شُفَاعَوْنَ عِنْدَ اللَّهِ} الآية. والشفاعة شفاعتان: شفاعة منفية، وشفاعة مثبتة. فالشفاعة المنفية: ما كانت تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ والدليل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبْغُ فِيهِ وَلَا خُلْلٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} . والشفاعة المثبتة: هي التي تطلب من الله، والشافع مكرم بالشفاعة، والمشفوع له من رضي الله قوله وعمله بعد الإذن، كما قال تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يَسْقُطُ عِنْدَهُ إِلَّا يَادِنِهِ} . هذه القاعدة الثانية، فيها سبب شرك الأولين، والذي حملهم على ذلك العمل وصاروا به مشركين، هو نفس الذي يفعله القبوريون الذين يعبدون الأموات؛ فإن الجميع مشتركون في القصد، يقولون: ما دعوناهم وتوجّهنا إليهم إلا لأجل القربي وأجل الشفاعة، وإن نعرف أنهم لا يخلقون ولا يربّون، لا يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعاً ولا ضراً، ولكن نجعلهم شفاء، نجعلهم وسطاء، لا بد لنا من واسطة بيننا وبين الله. يضرّون مثلًا -ولله المثل الأعلى- فيقولون: إذا كان لك حاجة عند الملك فإنك تطلب واسطة يتوسط لك حتى تقضى حاجتك. فأنا حاجتي عند الله المغفرة والرزق، أطلب واسطة، أتوسط بها بهذا النبي وبهذا الولي، فأقول: يا ولی الله، أو يا نبی الله اشفع لي عند الله، واسأله لي حتى يرزقني ويعافيني ويشفيوني من هذا المرض، ويقضي عني هذا الدين، أو يكف عني هذا العدو، أو ينصرني على من عاداني، أتوسط بك، أدعوك حتى تدعوا الله لي. هكذا شبهتهم. ونقول: إن الملوك والأمير والوزير ونحوهم مثلنا في البشرية، لا يعلمون الغيب ولا يطلعون على الحقائق، ولا يعرفون من الصادق من الكاذب، ولا تتحمّل نفوسهم أن يعرّفوا جميع حاجات الخلق. الرب -سبحانه وتعالى- {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} فهو لا تخفي عليه خافية من عباده {يَعْلَمُ الْجَهَرُ وَمَا يَحْكَى} {يَعْلَمُ السَّرُّ وَأَخْفَى} لا يشغله سمع عن سمع، لا تغلطه كثرة المسائل مع اختلاف اللغات وتقنن المسؤوليات، يسمع دعاءك ودعاء هذا وداعاء الخلق كلهم في لحظة واحدة، وفي طرفة واحدة، وإذا كان كذلك، فكيف يكون محتاجاً إلى وسطاء، وكيف يقاد بخلقه؟ فلا يجوز لكم أن تقسيوا الخالق بالمخلوق، وتقولون: نجعل بيننا وبين الله وسطاء تتوجه بهم إلى الله، ليفتحوا لنا الأبواب حتى ندخل على الله، وحتى يقبل منا أو يشفعوا لنا؛ هذا كله قياس فاسد؛ لا يجوز لكم أن تقسيوا الخالق بالمخلوقين. ذكر الدليل على ذلك، فالدليل على أنهم يقصدون التقرب قول الله تعالى في سورة الزمر: {وَالَّذِينَ آتَحْدُوا مِنْ دُونِهِ أُولَئِكَ} يقولون: {مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقْرَبُوْنَا إِلَى اللَّهِ رُلْقَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ} يعني يصلّي عليهم {في مَا هُمْ فِيهِ يَحْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} وصف هذا بأنه كذب وكفر. كذبوا، هؤلاء الذين يعبدونهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، حتى الأبياء؛ ولذلك قال الله تعالى: {وَآتَحْدُوا مِنْ دُونِهِ الْهَمَّةُ لَا يُحْلِفُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُحْلِفُونَ شَيْئًا وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ صَرَّاً وَلَا فَعَّاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْيًا وَلَا حَيَاةً وَلَا شُورًا} . فكيف يقرّبونكم إلى الله؟ حتى نبني -صلّي الله عليه وسلم- قال الله في سورة الأعراف: {فَلِلَّهِ الْمُلْكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا صَرَّاً إِلَّا مَا سَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْعَيْبَ لَاسْكُنْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَنَّى السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِّيرٌ} . ويقول الله في الآية في سورة الانفصال: {يَوْمَ لَا تَمْلِكُ تَقْسِنْ لِنَفْسِ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ} فكيف يقرّبونكم إلى الله زلفي؟ وكيف ينفعونكم وهم أموات غير أحياء، كما وصفهم الله في قوله تعالى: {وَآتَحْدُوا مِنْ دُونِهِ الْهَمَّةُ لَا يُحْلِفُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُحْلِفُونَ} ؛ يعني: لا يخلقون وهم مخلوقون، ثم وصفهم بأنهم: {أَمْوَاتٌ عَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَسْعُرُونَ أَيَّانَ يَبْعَثُونَ} أموات سواء كانوا جمادات أو من الأموات الذين قد ماتوا وانقضت حياتهم: {وَمَا يَسْعُرُونَ أَيَّانَ يَبْعَثُونَ} يعني: لا يدرّون متى البعث، قد انقضت أعمارهم الدنيوية، فكيف مع ذلك يقرّبونكم إلى الله زلفي؟ ودليل الشفاعة هذه الآية في سورة يونس: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَصْرُّهُمْ وَلَا يَنْعَهُمْ وَيَقُولُونَ هُؤُلَاءُ شُفَاعَوْنَ عِنْدَ اللَّهِ} يعبدون هؤلاء الأموات أو هؤلاء الغائبين أو هذه الجمادات أو هذه القبور ونحوها: {وَيَقُولُونَ هُؤُلَاءُ شُفَاعَوْنَ عِنْدَ اللَّهِ} يشعرون لنا، فيطلبون الله حتى يقضى حوانجي، حتى ينصرنا على أعدائنا، حتى يكثر أموالنا وأولادنا، حتى يعطينا ما نطلب: {هُؤُلَاءُ شُفَاعَوْنَ عِنْدَ اللَّهِ} {فُلَّ أَتَبْيُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ} أتخيرون الله بشيء يجهله؟ فالله عالم بكم، وأعلمكم من هؤلاء الذين تدعونهم وتجعلونهم وسطاء بينكم وبين الله: {فُلَّ أَتَبْيُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشَرِّكُونَ} وهكذا كانت عبادتهم لأجل هذا الشرك أنهم يسمونهم شفاء. في قصة صاحب "يس" لما أسلم قال: {أَنْجُدُ مِنْ دُونِهِ الْهَمَّةُ إِنْ يُرْدِنَ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُنْعِنَ عَنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا} كيف أتخذ مع الله آلة؟ سماها آلة، وذكر أنها لا تغنى شفاعتهم شيئاً، وذلك دليل على أنهم يقصدون الشفاعة لعبادة تلك الآلة، ويسمونها آلة؛ لأن قلوبهم تألهها أي تعظمها وتحبها. وهكذا إذا بعثوا في يوم القيمة يقولون: {فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ} ويقولون لأهلهم: {تَالَّهُ إِنْ كَنَا لِفِي صَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيْكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} نسويفكم به؛ يعني بتعطيمنا لكم وفي عبادتنا لكم، لم يسروهم برب العالمين في الخلق والتدبّر، وإنما سووههم في استحقاق العبادة، دعوهם كما يدعى الله، وهذا دليل على أنهم يعرفون الله، وأنهم يعبدونه، ولكن يتخذون معه هذه الآلة للشفاعة.